السيميائية والتصميم البصري الرقمي

إعداد

د. معجب بن عثمان الزهراني

جامعة الملك سعود. كلية التربية. قسم التربية الفنية

mojalzahrani@ksu.edu.sa

مجلة البحوث في مجالات التربية النوعية

معرف البحث الرقمي DOI: 10.21608/jedu.2021.74016.1335

المجلد السابع . العدد 37 . نوفمبر 2021

الترقيم الدولي

P-ISSN: 1687-3424 E- ISSN: 2735-3346

موقع المجلة عبر بنك المعرفة المصري https://jedu.journals.ekb.eg/

موقع المجلة http://jrfse.minia.edu.eg/Hom

العنوان: كلية التربية النوعية . جامعة المنيا . جمهورية مصر العربية

السيميائية والتصميم البصري الرقمي

د. معجب بن عثمان الزهراني

ملخص الدراسة:

يمكن ملاحظة تزايد اهتمام المتخصصين باستخدام السيميائية في مجالات الاتصال البشري، وتهدف هذه الدراسة إلى معرفة المصطلح الأنسب للسيميائية الذي يمكن أن يستخدم في مجال التصميم الرقمي، ومعرفة إمكانية استخدام السيميائية في مجال التصميم الرقمي العربي، وإشكاليات استخدام السيميائية في التصميم الرقمي العربي الحديث. وقد تم استخدام طريقة التثليث البحثي ضمن ثلاث منهجيات هي التاريخي وتحليل المحتوى والاستقرائي. ومن أهم نتائج هذه الدراسة أن الاسم الأفضل الذي يمكن استخدامه هو "السيميائية" نظرًا لارتباطه اللغوي والدلالي، كما أظهرت النتائج أنه بالإمكان استخدام السيميائية في مجال التصميم الرقمي العربي بشكل أكثر فاعلية، كما أظهرت هذه الدراسة أن هناك إشكاليات مرتبطة بحداثة التجربة وقلة المتخصصين الذين يمكن أن يربطوا السيميائية بالتصميم الرقمي العربي. وقدمت هذه الدراسة عددًا من التوصيات.

الكلمات الرئيسة:

السيميائية، التصميم، الرقمي، الفنون البصرية، العلامات، الدلالات.

Semiotics and Digital Visual Design

Abstract:

It can be seen that the increasing interest of specialists in using semiotics in the fields of human communication, and this study aims to explore the most appropriate term for semiotics that can be used in the field of digital design, and to know the possibility of using semiotics in the field of Arab digital design, and the difficulties facing the use of semiotics in modern Arab digital design. The triangulation method has been used in the study within three methodologies: historical, content analysis and inductive. One of the most important results of this study is that the appropriate term that can be used is "semiotics" due to its linguistic and semantic connection. The results also showed that semiotics can be used in the field of Arabic digital design more effectively. This study also showed that there are difficulties associated with the novelty of the experiment and the lack of specialists who can link semiotics with Arabic digital design. This study suggested a number of recommendations.

key words:

Semiotics, design, digital, visual arts, signs, semantics.

المقدمة:

فـي عـالم اليـوم أصـبحت التكنولوجيـا الرقميـة محركًـا مـؤثرًا فـي تطلعـات المجتمعات وتوجهاتها من خلال العديد من المجالات، وقد يكون التصميم البصري أحد أهم الروافد المعتبرة التي تعتمد عليها عمليات الاتصال والتواصل الرقمي؛ حيث أصبح التصـميم الرقمـي مـؤثرًا وموجهًـا نافـذًا فـي ثقافـات المجتمعـات الحديثـة لدرجـة وصـوله لتحديد تفضيلات الأفراد والجماعات من خلال الإمكانيات الهائلة المتوفرة له والتي تطورت خلال السنوات الأخيرة واستفادت مما أصبح يعرف بالثورة الرقمية التي شملت جوانب التصميم البصري بكل أطيافه.

في الناحية التنظيرية المقابلة لعبت السيميائية أدوارًا محددة في عملية تحليل الاتصال والتواصل بمعناها الحديث منذ بدايات القرن العشرين بجانب بعض النظريات الأخرى التي ظهرت في فترات مقاربة لظهور السيميائية مثل البنيوية والتفكيكية؛ إلا أن السيميائية سجلت الحضور الأبرز في ميدان الاتصال والتواصل كما يؤكد ليون (Leone, 2021) وذلك عائد في الغالب إلى المرونة الواضحة التي تحملها السيميائية في التكيف مع أنواع الاتصال إضافة إلى إمكانياتها التأويلية المتقدمة بالطبع.

ولا شك أن كل محاولة للربط العلمي بين السيميائية والاتصال البصري الرقمي ستصب في صالح تطور الاتصال البصري بكل أشكاله وأنواعه، وذلك لأن التجربة ما تزال حديثة وخاصة في الثقافة العربية التي يمكن التأكيد فيها على أن ارتباط السيميائية بالتصميم البصري الرقمي لا تزال تسجل أولى تحركاتها التي ننشد بأن تصل إلى مراحل متقدمة نلمح آثارها على مستوى ما يقدم في عالم التصميم الرقمي.

من هنا جاءت أهمية إجراء دراسة علمية تمزج بين السيميائية والتصميم البصري الرقمي في الثقافة العربية التي نرى بشكل جليّ أنها بحاجة متزايدة إلى إجراء دراسات وأبحاث من هذا القبيل، وذلك لمحاولة اللحاق بالركب العالمي في هذا الميدان

المهم، وذلك لأجل أن يؤثر التنظير على التطبيق، لنرى تطور الخطاب البصري العربي ماثلًا في كل ما ينتج ويقدم في عالم تسيطر عليه الصور والأشكال والألوان.

مشكلة الدراسة:

إن السيطرة المتزايدة التي تمثلها الرسائل البصرية المحيطة بنا من كل اتجاه في هذا الزمن المعاصر تعطينا ما يمثل تبريرًا مهمًا لدراسة ما يتعلق بالتصميم البصري بشكل عام والتصميم الرقمي على وجه الخصوص من خلال علم السيمياء أو علم العلامات المرتبط بالصورة والشكل. ولا ريب أن الصورة والشكل غدت تمثل اليوم حضورًا قد يكون طاغيًا في عصر الإعلام الحديث ووسائل التواصل الاجتماعي الرقمي المنعتقة تمامًا من أنماط التواصل التقليدي الخاضعة لمنهجيات كلاسيكية في المحتوى والوسيلة.

كما يمكن ملاحظة أن السيميائية لم تأخذ مكانتها المستحقة في مجال التصميم البصري في العالم العربي؛ حيث أنها لا زالت في بداياتها الأولى من حيث البحث والتأليف وكذلك التطبيق، وهذا بدوره يقودنا إلى التساؤل عن مدى إمكانية استخدام السيميائية في حقل التصميم الرقمي العربي بشكل فعال.

إن الحضور السيميائي قد يكون ضعيفًا في مجال التصميم الرقمي العربي على وجه الخصوص، وهذه ملاحظة ينبغي الوقوف عليها وحل إشكالياتها من خلال الأبحاث والمقالات العلمية وذلك لتزايد الحاجة إلى استغلال كل الإمكانيات العلمية التي تقدمها المنهجيات المعاصرة التي تتعامل مع المحتوى البصري بكل صوره والتي تشكل السيميائية فيها مثالًا واضحًا يمكن تفعيله واستغلال إمكانياته التحليلية والتأويلية.

قبل كل هذا يمكن ملاحظة إشكالية أخرى وذلك من خلال ما يتم طرحه في الكتب والدراسات من قبل المتخصصين في مجال الأدب واللغويات بالتحديد؛ حيث يمكن ملاحظة حضور أزمة المصطلح فيما يخص السيميائية فنجد أن هناك العديد من

الأسماء التي تطلق على هذا العلم دون أن يكون هناك ضابط واضح لتحديد اسم موحد بالرغم من أن هذا العلم قد ظهر منذ بدايات القرن العشرين.

لذلك رأى الباحث أهمية تناول هذه القضايا المرتبطة بالسيميائية والتصميم الرقمي ضمن بحث علمي يستكشف بعضًا من الأبعاد المرتبطة بهذا الموضوع والتي يرى أنها تمثل إشكاليات ينبغي الخوض فيها ومحاولة إجادة إجابات لتساؤلاتها المشروعة التي يمكن صياغتها فيما يلي:

- ما المصطلح الأنسب للسيميائية الذي يمكن أن يستخدم في مجال التصميم؟
- ما إمكانية استخدام السيميائية في مجال التصميم الرقمي العربي؟
- ما هي إشكالية استخدام السيميائية في التصميم الرقمي العربي الحديث؟

أهداف الدراسة:

- معرفة المصطلح الأنسب للسيميائية الذي يمكن استخدامه في مجال التصميم.
- معرفة إمكانية استخدام السيميائية في مجال التصميم الرقمي العربي.
- معرفة إشكالية استخدام السيميائية في التصميم الرقمي العربي الحديث.

منهجية الدراسة:

يتم استخدام منهجية التثليث (Triangulation Method) في هذه الدراسة وذلك بسبب أن المواضيع التي يتم تناولها تمثل جانبين أحدهما معرفي تنظيري متمثل في السيميائية، والآخر جانب أدائي تطبيقي في العديد من أوجهه متمثل في التصميم البصري الرقمي. كما أن الميزة الأبرز لاستخدام منهج التثليث هي فهم مواضيع هذه الدراسة من زوايا مختلفة والخروج بنتائج يمكن الوثوق بها (Heale and Forbes, 2013).

وضمن منهجية التثليث سوف يتم استخدام كل من المنهج التاريخي والمنهج التحليلي الوصفي والمنهج الاستقرائي؛ حيث إن كل من هذه المناهج سوف يتناول جزئيات متعلقة به للوصول إلى نتائج متكاملة.

المنهج التاريخي سوف يركز على الاستعراض الزمني لمواضيع الدراسة والتركيز على السيميائية بشكل خاص والمراحل التي مرت بها. كما أن منهج التحليل الوصفي سوف يساعد بشكل كبير في تحليل أنماط السيميائية وربطها بالتصميم البصري الرقمي. أما المنهج الاستقرائي فإنه سيساهم في رصد إشكالية هذه الدراسة، والعمل على إنشاء العلاقة العلمية والمنطقية بين مجالي السيميائية والتصميم البصري الرقمي، والوصول إلى نتائج مرتبطة بالجزئيات التي يمكن تعميمها في مثل هذا الموقف المرتبط بالجوانب الاستقرائية.

مفهوم السيميائية

في الواقع إن المعنى اللغوي للسيميائية لا يمثل معضلة وفق اللغة العربية؛ حيث إن المعاجم اللغوية تؤكد على أن السمة والسومة والسيماء كلها تعني العلامة (ثاني، 2005). أما مفهوم السيميائية العام فإنه وضمن أحد أوجهه يعني العلم الذي يهتم بدراسة العلامات والرموز المتواجدة في نظام معين وبالتالي دراسة أشكال التعبير عن تلك العلامات وكذلك محتوياتها ودلالاتها (Semetsky and Campbell, 2018). كما أنها تعني دراسة العلامات التي يتضمنها النسق الداخلي للنص الأدبي (Smith, 2019). كما أن مفهوم السيميائية يدل على أنها نظام متسلسل من العلامات ويكون خاضعًا لقواعد لغوية ضمن بيئة محددة (Seif, 2021). ويمكن من خلال مفهوم السيميائية الاستنتاج إلى أن هدف السيميائية يتمحور حول دراسة المعاني الضمنية المندرجة في نظام العلامات التي تحتويها اللغة الإنسانية حسب التعريفات الواردة مسبقًا.

وعند القراءات في المراجع العربية يمكن ملاحظة أن السيميائية تأخذ عدة مسميات عند استخدامها من قبل المتخصصين العرب، فالبعض يسميها السيميولوجيا وهذا المسمى في الأصل يستخدمه المتخصصون الذين يملكون خلفيات علمية فرنسية؛ حيث إن عالم اللغويات السويسري فرناند دي سوسير يطلق عليها مسمى سيمولوجي. كما أن البعض يسميها السيموطيقا وهي في الأصل مستخدمة من قبل المتخصصين الناطقين باللغة الإنجليزية. كما أن البعض يسميها علم العلامات وعلم الدلالات بالإضافة إلى بعض الأسماء الأخرى التي قد يستخدمها بعض المتخصصين.

نشأة السيميائية

تعود الجذور الأولى للسيميائية إلى العصور القديمة؛ حيث نجد أن لها امتدادات تاريخية في الحضارة الإغريقية فقد تناول أفلاطون الرمزية الشفهية كأحد مجالات التواصل المتقدمة، كما اهتم بالدلالات التي تولدها الكلمات والأصوات (ثاني، 2005). وفي مستوى أوسع فقد اهتم أرسطو بموضوع العلامة في تناولاته اللغوية من خلال استخدامه لمصطلح العلامات في كتابة "فن الشعر"، وقد تناول أرسطو ذلك المصطلح للتأكيد على طريقة التعرف والتحول وتطور الشخصية داخل النص من حال إلى آخر. ويقسم أرسطو العلامات إلى علامات موروثة وأخرى مكتسبة يمكن توظيفها في الخطاب اللغوي. ومن المهم الإشارة إلى أن الرواقيين هم أول من أشار إلى أن العلامة تحتوي على حال ومدلول وذلك قبل حوالي ألفي عام. وفي العصور الوسطى تم تجاذب مصطلح العلامات في عمليات التواصل ين الكائنات الحية لدى الفيلسوف أوقسطين الذي كان يرى أنها من أهم المميزات التي تحتويها اللغة الصوتية (حجاج، 2020).

كما أن علماء العرب والمسلمين عرفوا ومارسوا نوعًا من السيميائية في كتاباتهم، بل إن صحيفة اليوم السعودية عبر تقرير لها زعمت أن بداية ظهور

السيميائية كان لدى العرب والمسلمين مثل ابن خلدون ويوسف السكاكي وعبد القاهر الجرجاني الذين توصلوا إلى علم الدال والمدلول واستخدموا في كتاباتهم مصطلح الإشارة والاستدلال (اليوم، 2020). كما استخدم الجاحظ كلمات مثل العلامة والإشارة في دلالات واضحة على استخدامه نوعًا من السيمياء في مجال كتاباته اللغوية والأدبية. كما أن الرازي استخدم مصطلحات الدال والمدلول في مجال ألفاظ المعاني في دراساته اللغوية (العربي، 2012).

وفي عصر النهضة الأوروبي تم الاهتمام بالعلامات في مجال اللغة وقد يكون الفيلسوف ليبنز أحد أهم المفكرين الذين تناولوا تشكل العلامات اللغوية التي تؤدي إلى تطور الأفكار والمفاهيم ضمن إطار التواصل المجتمعي. كما كان للفيلسوف الإنجليزي جون لوك دور مهم في نشوء السيميائية؛ حيث أكد عام 1660 في موضوع تناوله للغة بأننا في الغالب لا نصل إلى الإدراك التام والشامل لحقيقة الأشياء، لذلك فإننا نعطيها أسماء أو علامات لمجرد الدلالة عليها (حنيفة، 2015).

لقد جاء أول ظهور منظم لمصطلح الدلالة والسيمياء في دراسة علمية مكرسة لهذا الموضوع من خلال عالم اللغة الفرنسي ميشيل بريال الذي قدم في عام 1897 بحثًا بعنوان "مقالة في السيمانتك"، وقد اعتبرت في وقتها إنجازًا معتبرًا في مجال الدلالات اللغوية (اليوم، 2020).

أما الظهور الحقيقي للسيميائية كعلم منظم له أصوله وقواعده فإنه يعود إلى القرن العشرين على يد كل من العالم السويسري المتخصص في اللسانيات فرناند دي سوسير، والعالم الأمريكي المتخصص بالعلوم تشارلز بيرس (Leone, 2021)، فقد ظهرت في القرن العشرين العديد من المدارس والدراسات اللغوية، وزاد الاهتمام بتناول قضايا الاتصال التي كانت تركز بشكل جلي على النسق اللغوي الداخلي، وقد أطلق على تلك التيارات عدة أسماء مثل الحداثية والنسقية والداخلية وذلك لاهتمامها بالنسق الداخلي للنص وضمن تلك التيارات ظهرت البنيوية والسيميائية ثم التفكيكية التي يبدو

أنها جاءت كردة فعل للحرب العالمية والتيارات الفكرية والسياسية داخل المجتمع الأوروبي الحديث (حجاج، 2020).

تاريخ السيميائية البصرية

بالرغم من أن السيميائية أو علم السيمياء يعد علمًا مرتبطًا بالعلامات مما يعطي انطباعًا بالانحياز المباشر إلى الفضاءات البصرية، إلا أن الواقع لا يدعم هذا الاتجاه؛ حيث إن دخول السيميائية إلى مجالات الفن والتصميم البصري تعد حديثة مقارنة بدخولها إلى الخطاب اللغوي الممتد عبر العصور القديمة كما تم استعراضه فيما سبق. وفي الجزئية التالية من الدراسة سوف نتناول تاريخ السيميائية البصرية.

خلال القرن العشرين تناول الفيلسوف الألماني إرنست كاسيرر فلسفة الأشكال الرمزية وذلك عام 1929، وقد أكد على أن الإنسان يعيش ضمن أنساق رمزية تعمل على تكوين وتحديد توجهاته، وتظهر الأشكال الرمزية المرتبطة بحياة الإنسان في كل من الدين والفن واللغة التي تكون مفاهيم الإنسان وتؤثر على حياته (حنيفة، 2015).

وفي عام 1943 قدم موكاروفيسكي بحثًا تمت فيه دراسة الفنون البصرية من خلال السيميائية، وذلك البحث يعد أول محاولة علمية متكاملة لربط السيميائية بالفنون البصرية الحديثة (Lee and Kim, 2020).

كما جاءت عدة محاولات لتطوير علم السيمياء وتطويعه لمجالات الاتصال البصري من خلال بعض الدراسات المحدودة هنا وهناك، ولكنها ظلت ضمن إطار ضيق التأثير وذلك لعدم توحيد جهود الباحثين والمهتمين بهذا المجال. وفي عام 1984 حدثت هناك نقلة نوعية في مجال السيمياء البصرية؛ حيث قامت الأمريكية ليندا سكوت المتخصصة في مجال التصميم البصري والإعلانات بإجراء دراسات مكثفة عملت من خلالها على تفكيك الصور في مجالات الإعلان باستخدام قراءات تحليلية للرسائل المتنوعة التي تقف خلف تصميم الإعلانات (Zantides, 2021).

وقد فتحت دراسات ليندا المجال أمام الباحثين والمتخصصين لتقديم تجاربهم في هذا الجانب فقد تم أيضًا في عام 1984 تقديم أبحاث ودراسات متزامنة حول استخدام السيميائية في مجال الاتصال البصري؛ حيث قام شاي ساير المجري بتحليل الخطاب البصري في الإعلانات التليفزيونية في المجر. وفي ذات العام قدم الأمريكي آرثر بيرجر المتخصص في فن الاتصال الإلكتروني دراسات حول تفكيك العلامات البصرية في البرامج التليفزيونية والأفلام الأمريكية ليوسع بذلك مجال استخدام السيميائية في العالم البصري (Airey, 2019).

ونتيجة لأهمية تواجد علم السيمياء في مجالات الاتصال البصري فقد تم إنشاء الجمعية الدولية للسيمياء البصرية في فرنسا عام 1989، والتي تعد المرجع العالمي الأول للسيمياء البصرية في مجال الموارد البشرية والأبحاث والدراسات والمؤتمرات المرتبطة بهذا المجال (Barbosa et al., 2021).

وزاد الاهتمام بالسيميائية البصرية في التسعينات من القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين، ودخلت في جميع المجالات البصرية ومجالات التصميم وخاصة بعد دخول الثورة الرقمية إلى تلك المجالات البصرية، وأصبح تحليل الرموز والعلامات من خلال السيميائية رافدًا مهمًا لتطور تلك المجالات التي شملت على سبيل المثال لا الحصر كلًا من التصميم الداخلي وتصميم الأزياء والأفلام السينمائية وتصميم الإعلانات والمسلسلات والبرامج التليفزيونية والتصميم المعماري وغيرها.

التصميم البصري

لقد لعب التصميم البصري دورًا مهمًا في التواصل البشري كعنصر مستقل حينًا أو مساندًا للنص المصاحب أحيانًا وذلك لتسهيل عملية فهم النص أو التركيز على دلالات معينة بالتحديد. ويمكن العودة بالتصميم البصري إلى بدايات نشوء اللغة البصرية التي ارتبطت بنشأة الإنسان ذاته؛ حيث عملت تلك اللغة البصرية البسيطة

على نقل مشاعر الإنسان البدائي من مخاوف وتطلعات مرتبطة بحياته اليومية التي تهدف في المقام الأول إلى البقاء. وقد وجدت الكثير من التصميمات البصرية المرتبطة بالنقوش والرسوم البدائية التي تؤكد هذا المعنى وتعزز توجهاته (Zantides, 2021).

لقد ارتبطت العلامة بالتصميم البصري منذ بداياته الأولى التي وصلتنا آثارها مشكلة شواهد واضحة على الاعتماد المحوري للتصميم البصري على العلامة والرمز، وهذا ما يمكن ملاحظته في فنون الإنسان البدائي مرورًا بالفنون التي شكلت منعطفات مهمة كشواهد على حضارات سادت ثم بادت ولم يبق راسخًا منها سوى الآثار البصرية مثل الحضارة الإغريقية والرومانية والفرعونية والآشورية.

كما شهدت العصور الوسطى تطورًا كبيرًا للتصميم البصري الذي لم يعد يستخدم للتواصل البسيط فحسب بل أصبح يدخل ضمن الدين وتكوين المفاهيم الذاتية والجماعية، وقد تكون التصميمات الإسلامية المنعكسة في الزخارف من أهم الأمثلة على هذا التوجه؛ حيث مثلت تلك الزخارف رموزًا لها دلالات عميقة مرتبطة بالفكر والعقيدة الإسلامية. كما أن التصميم البصري المرتبط بالعصور الوسطى الغربية يمكن أن يقال عنه ذات الشيء؛ حيث لعبت الرمزية والعلامات دورًا رئيسيًا في فنون تلك الفترة من خلال ما سمي بفن الأيقونة الذي مثل بعدًا دينيًا واسعًا ومرتبطًا بالمفاهيم الدينية المسيحية التي سيطرت على ساحة الفنون في تلك الفترة الزمنية.

إلا أن التصميم البصري بدأ التحرر نحو فضاءات أوسع بداية من عصر النهضة وصولًا إلى العصر الحديث حيث لم يعد التصميم البصري مجرد مصاحب تكميلي جمالي في عملية الاتصال الحديث، بل أصبح عاملًا مهمًا في عملية إنشاء المعلومات ذاتها وتنظيمها ونقلها إلى المتلقي، وأصبح جزءً محوريًا في هيكلية الخطاب البصري الذي أثبت من خلال العلم والتجربة أن تأثيره أعمق وفاعليته أجدى من وسائل التواصل الأخرى.

ويمكن تقسيم نماذج الاتصال في مجال التصميم البصري إلى ثلاثة أقسام كما يراها العربي (2012): 1- التمثيلية Presentation وهي التي تعطي تصورًا مماثلًا ومشابهًا للواقع. 2- التصويرية Iconic وهي التي تأخذ مبدأ المحاكاة والسمة. 3- الترميز Symbolic وهي التي تأخذ فقط الخصائص الرمزية للأصل الممثل.

التصميم البصري الرقمي

لا يمكن فصل التصميم البصري الرقمي عن التصميم البصري التقليدي لأنه يُعد امتدادًا منطقيًا له بحكم التطور الذي ساد كل المعارف والعلوم، ويمكن هنا رصد محطات مثلت نقاط ارتكاز للوصول إلى التصميم الرقمي وتطوره. وقد يمثل اختراع آلة الطباعة في عام 1454 على يد يوهانز قتنبرق أحد أهم تلك المحطات التي أدت إلى سهولة إنتاج ونشر التصميم في تلك الفترة (سانتورو، 2019). كما أن الثورة الصناعية الأوروبية مثلت منعطفًا آخر نحو تطور التصميم من خلال استخدام الأدوات الصناعية في مجال التصميم الذي أصبح أكثر سهولة في التعامل معه، وقد نشأ عن ذلك أن أصبح التصميم البصري ذاته مهنة مستقلة مع حلول عام 1922، وهذا بالتأكيد أعطى دفعة لهذا المجال بأن يتقدم بشكل سريع نحو المعاصرة التكنولوجية التي مثلت فيها الثورة الرقمية فتحًا فريدًا للتصميم.

إن الجذور الأولى للرقمنة المعتمدة على التقنيات الإلكترونية تعود إلى بداية الخمسينات من القرن العشرين وصولًا إلى السبعينات حيث كانت النشأة، وهذا جعل كل المجالات المرتبطة بالرقمنة تتطور بشكل مذهل بما في ذلك التصميم البصري، وقد شكل دخول أجهزة الحاسب الآلي إلى مجال التصميم تقدمًا منذ عام 1950 على يد جون ويتني الذي عمل على إنتاج رسوم إلكترونية لشركة بوينغ الأمريكية المتخصصة في مجال الطيران (Engerman and Otto, 2021)، وفي السبعينات من القرن العشرين توسعت استخدامات الحاسب في مجال التصميم ولكنها بقيت ضمن الاستخدام

المؤسسي، إلى أن جاءت الثمانينات وأحدثت نقلة نوعية في مجال استخدام الحاسب في التصميم البصري؛ حيث أصبح الاستخدام متاحًا للأفراد، وكانت حاسبات ماكنتوش سباقة في هذا المضمار، وهذا ما عجل بإطلاق العديد من برامج التصميم المتخصصة مثل الفوتوشوب والإلستريتور وغيرها، بعد ذلك تطورت برامج التصميم مما جعل من عام 1995 يمثل انطلاقة لاستخدام التصميمات الثلاثية الأبعاد في مجال الأفلام، وانتشرت تصميمات البيكسل والفيكتور لتمثل ثورة حقيقية في ميدان التصميم الرقمي (Duan and Yuan, 2021).

والواقع أن مجال التصميم البصري الرقمي لا يزال يدهشنا بالعديد من المنتجات في مجالات الإعلان والرسوم وصناعة السينما والوسائل التعليمية والتثقيفية وعلوم الفضاء والتصوير الطبي وغيرها من المجالات التي أصبح مسانداً حقيقيًا لها.

بين السيميائية والتصميم البصري الرقمي

من الواضح أن التصميم البصري الرقمي خطى خطوات متسارعة وأصبح تأثيره عاليًا على المشاهدين، ونرى بكل بساطة أن الهدف الدائم الذي ينشده التصميم البصري الرقمي هو زيادة فاعلية التأثير على المشاهد، وهذا بالتأكيد أصبح متاحًا بشكل أكبر مع تطويع التكنولوجيا الحديثة لمجال التصميم والاستفادة من الثورة الرقمية التي نشأت في الغرب وفي الولايات المتحدة على وجه الخصوص، وتفعيل أدوارها في زيادة الإنتاج وفاعليته. وبالإضافة إلى الاستفادة من الإمكانيات التكنولوجية الحديثة في مجال التصميم البصري الرقمي فإن هناك خطًا موازيًا لها يسير في سبيل تطوير ذلك المجال وهو تفعيل أدوار النظريات العلمية الفكرية التي من شأنها العمل على زيادة التأثير مثل نظريات اللون ونظريات الاتصال ونظريات التصميم المعاصرة.

وقد تكون النظريات المتعلقة بالسيميائية من أهم النظريات التي دخلت مؤخرًا لمجالات التصميم البصري الرقمي، وذلك لإحداث تأثيرات معينة في العقل وبالتالي

توقع الحصول على ردود أفعال من قبل المتلقي (Barbosa et al., 2021). إن وضع رمز معين بلون معين وفق وضعية معينة من شأنه أن يحفز الذاكرة ويعمل على تحريك الفكر ومن ثم المشاركة في حدث معين أو إحداث ردة فعل مقصودة.

إن العلامات البصرية التي ينشئها المصمم بالتأكيد أنها تحمل دلالات ومضامين يقوم بالتلاعب بها وذلك لتحفيز استجابات مستهدفة، والسيميائية تساهم في هذا المجال بشكل مباشر لأنها في الأصل معنية بتأثير الأشياء على الناس في مستواها اللغوي وفي مستواها البصري (Airey, 2019). لذلك فإن المفهوم الذهني للعلامة يمكن أن تكرسه أعمال التصميم البصري الرقمي وتقدمه إلى المشاهدين بطرق شتى تحتوي على معلومات مباشرة وغير مباشرة يتم تقديمها بأشكال حديثة، والسيميائية في هذا المشهد قد تساهم بشكل فعال ليس فقط في تحميل الرموز بالدلالات بل أيضًا في مستوى التأثير العاطفي التي تحتويها تلك الرموز والإشارات بما يجعل الحواس الإنسانية تتفاعل معها بحيث يصل الانطباع والتأثير إلى الدماغ، وهذا كله يأتي بفضل التوافق الذي يتم إنشاؤه بين كل من التصميم البصري الرقمي والسيميائية والذي أخذ أبعادًا مهمة في الإنتاج الغربي على وجه التحديد.

بالنسبة للتجربة العربية فإنها لا زالت في بداياتها الأولى في هذا الميدان، وهذا ليس بمستغرب نتيجة أن التصميم البصري الرقمي العربي أصلًا ليس في أفضل حالاته عند مقارنته بالإنتاج الغربي، كما أن تجربة السيميائية البصرية العربية لا زالت في أولى خطواتها كما سيتم مناقشته لاحقًا.

الترميز البصري السيميائي في التصميم

التصميم البصري ليس مجرد تمثيل للواقع ولكنه يعد نظامًا رمزيًا متكاملًا يهدف في المقام الأول إلى إنشاء تواصل بصري له أهدافه الخاصة التي يسعى إليها المصمم. وكما تم بيانه في الفقرات السابقة فإن عالم اللغة السويسري سوسير قد أشار

إلى فكرة مفادها أن العلامة تعد تمثيل لشيء غير حاضر وهو ما سمي بعلم السيمياء الذي توسع فيه تشارلز بيرس والذي كان يرى أن السيميائية تعتمد على ثلاثة مرتكزات هي الدال والمدلول وتفسير الدلالة. إلا أن التفصيل الواضح للربط بين السيميائية والترميز البصري كما شرحها سانتورو (2019) قد جاءت بجهود الفيلسوف تشارلز موريس عندما أطلق دراسته التي أخذت عنوان أسس نظرية العلامات عام 1938 التي احتوت على ثلاثة مكونات للسيميائية هي التراكيب والسياقات، والدلالات، والبراقماتية التي تركز على وظيفة وسياق الاستخدام.

إن الدلالات التي أصبحت علمًا مستقلًا تمثل محور الارتكاز لعملية الترميز في التصميم حيث إنها ترتبط بشكل مباشر بالمعنى الذي يقف خلف علامة ما. إن الرمزية أو الترميز لا يقف عند مجرد الإشارة إلى معاني ودلالات العلامات ولكنه يستخدمها كناقل مؤثر على المشاهد، وبالتالي فإن الدلالات لا بد أن تكون متوافقة مع المعنى الذي يهدف إليه الترميز (Dondero, 2019).

وفي المجال السيميائي المتعلق بالدلالات فإن هناك ثلاثة جوانب تعد ركائز تعتمد عليها الدلالة وهي الأيقونة والإشارة والرمز (Moriarty, 2005)، والواقع يؤكد على أن هناك استخدام متزايد لهذه الأشكال الثلاثة من أشكال الدلالات في التصميم المعاصر الذي اتجه بطريقة لا تخطئها العين الفاحصة إلى التجريد الذي يعتمد على الترميز بوجه أو بآخر.

إن الأيقونة تعد علامة تشبه بشكل مباشر الشيء الذي تمثله، أما الإشارة فإنها علامة تشير إلى شيء أو اتجاه معين، أما الرمز فإنه يُعتبر علامة مجردة يتم ربطها بفكرة أو شيء معين قد تشبهه وقد تكون مختلفة شكليًا عن الشيء الذي تدل عليه، وبذلك فإن الرموز في الغالب قد تبدو غير مشابهة للمدلول ولكن تم عمل ارتباط بينهما وتم تكريسه مثل السيفين والنخلة التي ترمز إلى الملكة العربية السعودية والكنغر الذي يرمز إلى أستراليا وهكذا.

لقد بدأ الترميز البصري يأخذ أبعادًا أكثر عمقًا في مجال التصميم الرقمي الحديث وذلك عائد بالطبع إلى التطورات التقنية والفكرية والمعرفية التي يعيشها العالم المعاصر والتي بدورها أصبحت تتطلب حضورًا أكثر تأثيرًا للتصميم من خلال الترميز الدلالي العميق والتبسيط الشكلي البصري.

ويمكن أن يأخذ الترميز البصري السيميائي نطاقات متفاوتة في فضاء التصميم الرقمي يمكن حصرها في أربعة أوجه هي العلامة التجريدية، والعلامة الصورية، والعلامة الحرفية، والعلامة الكتابية (Leone, 2021). العلامة التجريدية تتضمن رمزًا تجريديًا يُتفق على مدلوله من خلال ربطه بشيء معين ثم تكريس تلك الرمزية لدى المتلقين. أما العلامة الصورية فإنه يتم عمل الرمز من خلال صورة مرتبطة بشكل مباشر بالواقع الذي تدل عليه، أما العلامة الحرفية فإنها تستخدم خاصية الحروف الدلالية وجعل أحد تلك الحروف أو أكثر رمزًا يدل على شيء أو معنىً معين مثل حرف "N" الذي يدل على اتجاه الشمال لأنه أول حرف من كلمة North. أما العلامة الكتابية فإنها تعتمد على كتابة مقروءة معينة لترمز إلى شيء مثل كلمة "خطر" التي ترمز لكل ما قد يؤذي الإنسان وبالتالي أصبحت هذه الكلمة رمزًا دلاليًا تستخدم في اللوحات للإشارة إلى ما قد يؤذي الإنسان.

كما أن الألوان أيضًا تلعب دورًا بارزًا في الترميز البصري في مجال التصميم؛ حيث إن لكل لون من الألوان رمزيته الخاصة وكذلك تأثيراته النفسية على المشاهد وهو ما ساهم في أن تدخل السيميائية في عالم الألوان وتستفيد من الثراء التأثيري للون وبالتالي محاولة تطويع تلك الإمكانيات وتفعيلها في جوانب عديدة في حياة الإنسان بما يضمن وقوع التأثير وزيادة الفاعلية على المشاهد في العديد من المجالات والحقول.

النتائج والمناقشة:

لقد ظهر معنا في هذه الدراسة ما يمكن تسميته بأزمة المصطلح المتعلقة باسم السيميائية سواء كان استخدامها في مجال الخطاب اللغوي أو في المجال البصري؛ حيث ظهر أن المتخصصين العرب يستخدمون عدة أسماء مثل السيمولوجيا والسيموطيقيا والسيمانطيقيا وعلم العلامات وعلم الدلالات وغيرها من المسميات. إلا أننا نؤكد في هذه الدراسة أن مصطلح السيميائية هو الاسم الأفضل الذي يمكن استخدامه في العالم العربي وذلك لوجود أصل له في اللغة العربية مرتبط بمفهومه ودلالته.

لقد وردت كلمة السمة بمشتقاتها في القرآن الكريم عشر مرات في مواضع مختلفة مثل قول الله تعالى "سيماهم في وجوههم" وقوله تعالى "تعرفهم بسيماهم"، والمؤكد أن جميع المواضع التي جاءت فيها هذه الكلمة ومشتقاتها كانت تعني العلامة ومشتقاتها مثل قوله تعالى "مسومة عند ربك" أي معلّمة. كما أن المعاجم اللغوية العربية احتوت كلمات مثل السيمياء والسمة، إضافة لذلك فإن العرب قديمًا استخدموا كلمة سيمياء حيث قال أسيد الفزاري: غلام رماه الله بالحسن يافعًا ..... له سيمياءٌ لا تشق على البصر. وهذا يعطينا ارتياحًا تامًا باستخدام كلمة السيمياء للدلالة على هذا العلم وذلك لوجود أصل لغوي في العربية، وهذا الاسم بالتالي يغني عن الاستخدامات الأخرى مثل السيمانطيقيا والسيموطيقيا وعلم العلامات والسيمولوجيا. وما يعزز هذا الاتجاه أيضا وخاصة في مجالات الاتصال البصري أن كلمة السيمياء بكل تفريعاتها ومشتقاتها مرتبطة في الأصل بالعلامة البصرية لذلك فإن هذه الدراسة تؤكد على استخدام اسم السيميائية وخاصة في مجالات الاتصال البصري.

وبالرغم من أن السيميائية في الأصل تهتم بالعلامات البصرية إلا أن هذه الدراسة بينت من خلال التتبع التاريخي أن استخدام السيميائية كان حاضرًا في البداية في مجال الخطاب اللغوي منذ العصر الإغريقي الذي تناول فيه أفلاطون الرمزية الشفهية واهتم بالدلالات التي تولدها الكلمات. كما أن أرسطو المعلم الأول قد استخدم

مصطلح العلامات وأوردها في كتابه الشهير "فن الشعر" وذلك خلال تقسيماته للعلامات التي كانت تصف الشخصيات الواردة في النصوص الأدبية وامتدادًا لتلك الجهود فقد طور الرواقيون استخدام العلامات في النصوص وأشاروا إلى أن العلامة تحتوي على دال ومدلول. كما استمرت الجهود في عصر النهضة الأوروبي في استخدام العلامات في المجال اللغوي واللساني. وكل تلك الجهود أدت إلى نشوء علم السيمياء على يد فرناند دي سوسير وتشارلز بيرس وذلك في بدايات القرن العشرين، ولكن استخدامات السيمياء في تلك الفترات كانت ضمن النطاق اللغوي واللساني.

وبالرغم من أن ظهور أولى المحاولات لإدخال السيميائية إلى المجالات الفنية البصرية تعود إلى عام 1943 من خلال دراسة قدمها موكاروفيسكي لربط السيميائية بالفنون البصرية إلا أن الارتباط العلمي الوثيق بين السيميائية والفن والتصميم البصري ظهر عام 1984 على يد ليندا سكوت المتخصصة في مجال التصميم البصري من خلال تقديمها دراسات عديدة استطاعت بها ربط السيميائية بتصميم الإعلانات. وفي ذات العام ظهرت دراسات لشاي ساير وآرثر بيرجر تؤكد على الاستخدام السيميائي في مجالات التصميم البصري.

أما استخدام السيميائية في مجال التصميم الرقمي فيمكن التأكيد على أن هناك ارتباط وثيق بين التصميم الرقمي والسيميائية حيث أن التصميم الرقمي في الأصل يقوم على مبدأ إنشاء العلامات البصرية، وفي ذات الوقت فإن السيميائية يقوم كيانها على دراسة العلامات وكيفية استخدام تلك العلامات في التواصل الإنساني الفعال. ومع التسليم بهذا الارتباط الوثيق من الناحية التنظيرية إلا أن الارتباط بين هذين الجانبين لم يطبق على أرض الواقع إلا في فترات متأخرة.

وبالعودة إلى أولى محاولات استخدام الأجهزة الإلكترونية في مجال التصميم التي تعود إلى عام 1950 فإن الاستخدام الرقمي الفعلي المتطور بعد مراحل التجريب

يعود إلى بداية الألفية الثالثة في الولايات المتحدة الأمريكية. ومن تلك الفترة بدأت تدخل السيميائية إلى مجالات التصميم الرقمي في الغرب على وجه الخصوص.

أما في الثقافة العربية فإن دخول السيميائية إلى مجال التصميم الرقمي كان أمرًا حتميًا طالما أن العالم العربي يمثل جزءً من هذا العالم الكبير، يتفاعل معه وتصله مكتشفات العالم الغربي ودراساته، ونتيجة لذلك فقد ظهرت بالفعل بعض الدراسات العربية المتعلقة بالاستخدام النظري للسيميائية في مجال التصميم البصري. إلا أن هناك إشكاليات واضحة في هذا الجانب؛ حيث إن تلك المحاولات لا تزال في بداياتها، كما أن الجانب التنظيري يطغى على تلك المحاولات.

إن أهم المتخصصين في مجال السيميائية في الوطن العربي هم من الأكاديميين المعاصرين؛ حيث إن التجربة السيميائية بشكل عام لا زالت في بداياتها فنجد مثلًا كل من عبد الملك مرتاض وعادل فاخوري وعبد السلام المسدي وعبد الله الغذامي وجميل الحمداوي وسعيد بنكراد، وكل هؤلاء هم من المتخصصين في مجالات الفكر والنقد الأدبي في الغالب، لذلك فإن السيميائية العربية هي سيميائية لغوية بامتياز، تفكك وتحلل الخطابات والنصوص الأدبية وهذا بالتأكيد يبين مدى تفوق الدراسات التنظيرية للسيمياء العربية في مجالات الخطابات اللغوية والنصوص الأدبية.

إن واحدة من أهم الإشكاليات التي تواجه السيميائية في مجال التصميم الرقمي العربي هي ندرة وجود متخصصين في مجالات السيمياء البصرية. وبالعودة إلى استعراض أهم الدراسات والأبحاث التي دونت في مجال سيميائية التواصل البصري فإننا نجد أسماءً لامعة مثل عبد الحق بلعابد وإبراهيم حجاج وسعيد بنكراد وعقيل مهدي وجميعهم متخصصون في مجالات اللسانيات والأدب باستثناء عقيل مهدي المتخصص في مجال الفنون البصرية، وهذا يعطينا مؤشرًا على إشكالية واضحة في مجال سيمياء التصميم الرقمي وهي عدم وجود دراسات متخصصة عميقة ومتنوعة تهتم بالسيميائية

البصرية، وما يسبب هذه الإشكالية هو عدم وجود متخصصين في السيميائية البصرية الفنية إلا في حالات قليلة كما اتضح من الأسماء المذكورة سابقًا.

ويبقى الرهان قائمًا حول تطور الدراسات والأبحاث التي تربط السيميائية والتصميم الرقمي العربي بالمجهودات التي ستقدم مستقبلًا من قبل المتخصصين والنقاد والمحللين الذين يملكون خلفيات ثرية في مجالات الفنون البصرية والتصميم الرقمي وذلك لأن لديهم المفاتيح الأساسية المرتبطة بالشكل والخط واللون والصورة، وهو ما قد يفتقده المتخصص في المجالات الأدبية.

ويمكن تلخيص نتائج هذه الدراسة فيما يلي:

– المصطلح الأنسب الذي يمكن استخدامه لهذا الحقل هو السيميائية بدلا من السيمولوجيا والسيموطيقيا والسيمانطيقيا وعلم العلامات وعلم الدلالات وذلك لوجود أصل لها في اللغة العربية.

– السيميائية يمكن تفعيل دورها في التصميم الرقمي العربي وقد بدأت بالفعل بالدخول إلى هذا العالم ولكنها لا زالت في بداياتها.

– من أهم الإشكاليات التي تعاني منها السيميائية العربية في هذا الحقل هي عدم بروز متخصصين في مجال سيميائية التصميم البصري.

– أن أهم التجارب التي قدمت في مجال السيميائية البصرية العربية قدمها متخصصون في مجالات الأدب والخطابات اللغوية، وهذا يعطي مؤشرا باحتياجها للمعارف والمعلومات والخبرات المرتبطة بالتصميم الحديث المتخصص.

الخاتمة والتوصيات:

إن دراسة السيميائية في مجال التصميم البصري الرقمي في العالم العربي لا تزال في بداياتها الأولى، وهذا الحقل يحتاج إلى الكثير من الجهود لعمل الدراسات والأبحاث، وقد جاءت هذه الدراسة ضمن هذا الإطار وقد وجدت الدراسة أن المصطلح

الأنسب الذي يمكن استخدامه لهذا الحقل هو السيميائية وذلك لارتباطها بالموروث اللغوي والعربي، وأيضًا لدلالاتها على العلامة البصرية التي يعتمد عليها التصميم في كثير من جوانبه. كما أن هذه الدراسة توصلت إلى أن السيميائية بدأت بالفعل بالدخول إلى عالم التصميم الرقمي ولكنها لا زالت في بداياتها الأولى وهي تعاني من بعض الإشكاليات التي يأتي في مقدمتها عدم بروز متخصصين في مجالات التصميم البصري ليقدموا نظريات وأفكار موثوقة للاستخدام المؤثر للسيميائية في مجال التصميم، كما أن التجارب التي قدمت وإن كانت في بداياتها الأولى فإنها قدمت من قبل متخصصين في مجالات الأدب والخطابات اللغوية، وهي وإن كانت مجهودات مشكورة إلا أنه ينقصها التخصص البصري الذي يحتاج إلى الكثير والكثير من المعارف والمعلومات والخبرات المرتبطة بالتصميم الحديث.

ويمكن لهذه الدراسة أن تقدم بعضًا من التوصيات كما يلي:

- اعتماد مسمى السيميائية بين المتخصصين في مجالات الاتصال البصري على وجه الخصوص.
- إجراء المزيد من الدراسات والأبحاث في مجال السيميائية البصرية.
- التركيز على الجوانب التنظيرية بجانب الجوانب التطبيقية والعملية في كليات وأقسام التصميم البصري.
- عقد لقاءات بين المتخصصين في السيميائية بشكل عام والمصممين وذلك لمعرفة ما يحتاجه كل فريق من الآخر، والعمل ضمن هذا الإطار بما يصب في صالح كل من الطرفين بالنفع والفائدة.

المراجع والمصادر :

أولًا: المراجع العربية

العربي، أسامة. (2012). نحو أداة موضوعية لتحليل وتقويم مضمون سيميائية الصورة في كتب تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها. *مجلة كلية التربية*. 28 (4)، 13 – 56.

اليوم. (2020). علم الدلالة "السيمانطيقيا". *صحيفة اليوم*، 53 (21)، 5 ديسمبر 2020. دار اليوم للصحافة والطباعة والنشر.

ثاني، قدور. (2005). *سيميائية الصورة. مغامرة سيميائية في أشهر الإرساليات البصرية في العالم*. الجزائر: دار الغرب للنشر والتوزيع.

حجاج، إبراهيم. (2020). *المنهج السيميولوجي ببساطة*. قناة د. إبراهيم حجاج.

حنيفة، فركوس. (2015). الأصول الغربية للسيمياء وإرهاصاتها العربية. *مجلة الأثير*، 23 (9)، 71 – 84.

سانتورو، سكوت. (2019). *الدليل إلى التصميم الجرافيكي*. ترجمة معجب الزهراني. دار جامعة الملك سعود للنشر.

ثانيًا: المراجع الأجنبية

Airey, D. (2019). Logo design love: A guide to creating iconic brand identities. New Riders, Peachpit.

Barbosa, S. D. J., Barbosa, G. D. J., Souza, C. S. D., & Leitão, C. F. (2021, March). A Semiotics-based epistemic tool to reason about ethical issues in digital technology design and development. In Proceedings of the 2021 ACM Conference on Fairness, Accountability, and Transparency (pp. 363-374).

Dondero, G. (2019). Visual semiotics and automatic analysis of images from the Cultural Analytics Lab: How can quantitative and qualitative analysis be combined?. Semiotica, 2019(230), 121-142.

Duan, B., & Yuan, S. (2021). Research on Quality Surveillance in Digital Design Environment. In IOP Conference Series: Materials Science and Engineering (Vol. 1043, No. 5, p. 052048). IOP Publishing.

Engerman, A., & Otto, F. (2021). The shift to digital: designing for learning from a culturally relevant interactive media perspective. Educational Technology Research and Development, (3)1-5.

Heale, R. & Forbes, D. (2013). Understanding triangulation in research. Evidence-based nursing. 16. 10.1136/eb-2013-101494.

Lee, E., & Kim, B. (2020). Analysis on the book cover design using Roland Barthes' Semiotics. Journal of Digital Convergence, 18(3), 357-362.

Leone, M. (2021). From Fingers to Faces: Visual Semiotics and Digital Forensics. International Journal for the Semiotics of Law-Revue internationale de Sémiotique juridique, 34(2), 579-599.

Moriarty, S. (2005). Visual semiotics theory. Handbook of visual communication: Theory, methods, and media, 8, 227-241.121-128.

Seif, F. Y. (2021). Editorial Introduction: Design and Semiotics: The De-sign Constitution of Reality. The American Journal of Semiotics, 36(3/4), 165-178.

Semetsky, I. & Campbell, C. (2018). Semiotics and/as Education. Chinese Semiotic Studies, 14(1),

Smith, L. (2019). Semiotics and the Art Curriculum. The International Encyclopedia of Art and Design Education, 1-7.

Zantides, E. (2021). Signs of National Identity in the Graphic Design of Cypriot Print Advertisements. The American Journal of Semiotics, 32(2), 14-36.